

القيم الإنسانية والاجتماعية في الأدب العباسي

إسماعيل نادري*

الملخص

يعتبر العصر العباسي من أئمن عصور الأدب الإسلامي إلا أنّ المؤرّخين، والنقاد تكلموا كثيرا ما عن المساوئ الأخلاقية فيه دون أن يوفوا أدباء هذا العصر حقّهم، ودون أن يلتفتوا إلى القيم المنتشرة في الشعر، والنثر. فقالوا إنّ معظم الأدباء كانوا ماجنين، ومهاترين، ولكننا إذا دققنا النّظر، لوجدنا أنّ الأدباء بغض النظر عن بعضهم، بذلوا قصارى جهدهم لانتشار القيم، ولاسيما أعلامهم الذين كان مخاطبوهم من مختلف الفئات؛ وأعلامهم في الشعر: أبوالغناحية، وأبوتمام، وأبوالعلاء المعري، والمنتبى، والشريف الرّضى؛ وأعلامهم في النثر: الجاحظ، وبديع الزمان الهمداني؛ وهؤلاء الأعلام يمثلون علماء هذا العصر الذين أدوا واجبهما الإنساني تجاه المجتمع، غير أن هناك أدباء كثيرين نهجوا هذا المنهج، ولكن المجال لا يتسع لنا للبحث عن كلّهم أجمعين.

الكلمات الدليلية: القيم الإنسانية والاجتماعية، العصر العباسي، التأثير، الأدب، الشعر، النثر.

*. خرّيج جامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات طهران.

المقدمة

كثيرا ما سمعنا عن العصر العباسي، وعما فيه من المساويء الأخلاقية، وعن انتشارها في المجتمع، كشرب الخمر، والفحشاء، والمجون؛ ولكن نرى في العصر نفسه انتشار القيم الإنسانية، والاجتماعية، كحرية البيان، وحرية التعليم، والتعلم، وانخفاض شدة العصبية العربية، والتعايش السلمي بين عامة الناس، والمباحثات المعرفية في الحلقات العلمية؛ وللأدباء سهم كبير في انتشار القيم هذه، وذلك لأنّ الأديب بشعره، ونثره كان يذيع القيم؛ وأدبه يستقطب اهتمام كثير من القراء، ويشدّهم إليه، ولاسيما إذا كان الأديب من مشاهير الأدباء؛ لأنّ تأثير كلامه حينئذ أكثر من أديب لا يعرف إلا في منطقة محدودة أو في زمن محدود، فكلّ من ذاع صيته ازداد تأثير كلامه.

يتطرق هذا المقال إلى أعلام الشعر العباسي وهم: أبو العتاهية لأنّه رائد الشعر الزهدي في العصر العباسي، وأبو العلاء المعري لأنّه فيلسوف الشعراء، والمنتبى لأنّه حكيم الشعراء، وأبوتمام لأنّه رجل الثقافة، والفكر، والشريف الرضي رائد الالتزام؛ ومن أعلام الكتاب: الجاحظ، وله آراء ثمينة في الأخلاق، والقيم، وبديع الزمان الهمداني الذي اشتهر بمقاماته، ورسائله التي عمل فيها عمل الصحفي.

والهدف من هذا المقال دعوة دارسي الفنون الأدبية في العصر العباسي سواء كانت شعراً أو نثراً، إلى تقييم هذا الأدب، وإعطاء الأدب العباسي حقه، والأدباء حقهم في انتشار القيم، وتبرئة الأدب العباسي عن اتهام ندرة القيم فيه.

القيم في اللغة والاصطلاح

القيم في اللغة مفردھا القيمة، الثمن الذي يعادل المتاع، وأيضا النوع من قام، قيمة الإنسان قامته، أمر قيّم: مستقيم، الديانة القيّمة: المستقيمة. (معلوف، ١٩٩٢م: حرف القاف)

أما القيم في الاصطلاح فيقصد بها مجموعة من الأخلاق، والتمثلات السلوكية، والمبادئ الثابتة أو المتغيرة التي ترتبط بشخصية الإنسان إيجاباً أو سلباً، وبالتالي تحدّد كينونته، وطبيعته، وهويته انطلاقاً من مجموع تصرفاته الذاتية، والوجدانية، والعملية.



فائدة القيم

القيم، والثبات عليها حصانة للمجتمع من الذوبان، وتفويض عليه طمأنينة؛ والقيم تحفظ الأمن، وتقي من الشُّرور في المجتمع لأنَّ تأثيرها أعظم من تأثير القوانين، والعقوبات، والقيم تجعل للإنسان قيمة، ومنزلة، ولحياته طعما، وترداد ثقة النَّاس به، وأصحاب القيم يؤدُّون أعمالهم بفعاليَّة، وإتقان.

القيم الإنسانيَّة والاجتماعية

القيم الإنسانيَّة، والاجتماعية مصدرها فطرة النَّاس السَّليمة التي أهدى الله إلى كلِّ أناس، ولا يحدِّدها زمان، ومكان، فإنَّ القيم ثابتة في كلِّ المجتمعات، وفي كلِّ الأزمنة، والأمكنة، وعند كلِّ أناس، وهي تستمدُّ إلزامها، وقوَّتها، وحقيقتها، وطبيعتها من الله، وهذا الاتِّجاه في عمومها اتِّجاه دينيُّ، وتندرج تحت إطاره بعض الاتِّجاهات المنالِيَّة التي تقترب في فهمها لله من المفهوم الديني، وعلى أساس هذه النَّظريَّة بنينا بحثنا هذا، على خلاف الاتِّجاه الطَّبيعيِّ الذي يرى أنَّ مصدر القيم الأخلاقيَّة هو التَّطوريَّة الطَّبيعيَّة القائمة على الاصطفاء الطَّبيعيِّ، والاتِّجاه النَّفسيِّ الذي يرى أنَّ مصدر القيم الأخلاقيَّة في طبيعتها، وقوَّتها، وإلزامها هو البنية النَّفسيَّة، وغيرها.

ارتباط الأدب بالقيم

أورثنا الأنبياء (ع) رسالاتهم السَّماوية، كما أن الأدباء يورثونا أجلَّ الأخلاقيَّات، والمثاليَّات التي تضيء لنا دروب المستقبل، ويبينون لنا أين نحن على خرائط الإنسانيَّة، إذا التَّهمت جردان الأنائيَّة بذور الخير المغروسة في قلوبنا، وأصبحنا كالطُّبول تفرع، ولا تنظر، ثم إنَّ الأدب هو الأخلاق الذي هو المحرك الرَّئيسيِّ لأفلام الأدباء؛ فإنَّ ارتباط الأدب بالقيم أمر لا نزاع فيه، فليس هنالك أصلاً فنٌّ لا يدعو إلى قيم معيَّنة، وإنَّ فكرة (الفنِّ للفنِّ) خرافة، وهي لا وجود لها عند التَّطبيق العمليِّ، مهما ادَّعى أيُّ ناقد أنَّه سينظر إلى النَّصِّ الأدبيِّ الذي أمامه نظرة فنيَّة مجردة، لاتعياً بما فيه من فكر، أو بما



يدعو إليه من قيم أو معتقدات، فإنه في حقيقة الأمر، وعند المواجهة العملية لا يستطيع ذلك، وسيغلبه ذوقه، واتجاهه الفكري والعقدي؛ وإن كثيراً من الناس يجدون أنهم لا يستمتعون بالشعر إذا كانوا يختلفون مع الشاعر في معتقداته أو أفكاره.

خصائص الأدب العباسي

يعدّ الأدب العباسي صورة حقيقية للبيئة العباسية، وقدامتاز هذا الأدب بمجموعة من الخصائص تمثلت في:

- ١- العلمية والسماح بحرية الفكر النسبية.
 - ٢- الواقعية، والاجتماعية.
 - ٣- النزعة القومية، والشعوبية، واحتدام الصراع بين العرب، والفرس.
 - ٤- التجديد، والمحافظة.
 - ٥- الالتزام المذهبي، والسياسي، والمعاناة الفردية.
 - ٦- الحسية، والغنائية.
 - ٧- الصناعة اللفظية، والعمل الذهني.
 - ٨- الاتباع، والابتداع في الشكل، والوزن بين القديم، والحديث، وظهور أوزان جديدة، وأشكال مستحدثة للشعر، وأغراض جديدة، وظهور أشكال جديدة من النثر، وتغيير النثر من حيث المحتوى.
 - ٩- الإنسانية، والاجتماعية. (الخفاجي، ١٩٩٠م: ٦٨ - ٧٥؛ والجندي، ١٩٦٠م: ١٨٦ - ١٦٠)
- وللأدباء كان، ويكون سهم كبير في انتشار القيم الاجتماعية، والإنسانية؛ ونتاجهم الأدبي كان غذاء للعقل، والروح معاً لأنهم كانوا يعملون عمل الصحفي، فإن الصحفي كما يخبر عمّا وقع في المجتمع، ينقد الوقائع، والأعمال، فيقسّمها إلى الخير والشر، ويشوق الناس إلى الخير، وينهاهم عن الشر، وأيضاً الأديب بشعره، ونثره كان يذيع القيم، لأن أدبه يستقطب اهتمام كثير من القراء، ويشدّهم إليه، لما له من أثر في تنقيف الشعب، والوصول به إلى درجة رفيعة من النواحي الخلقية، والاجتماعية باعتبار أنّ الشعر، والنثر، والفنون



الأدبيّة، جامعة للقيم الأدبية، وباعتبار أنّ للأدب تأثيراً يترك أثره في نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم، ولاسيّما إذا كان الأديب من مشاهير الأدباء، لأنّ تأثير كلامهم أكثر من أديب لا يعرف إلا في منطقة محدودة أو في زمن محدود فكلّ من ذاع صيته ازداد تأثير كلامه.

القيم الإنسانيّة، والاجتماعية في آثار أعلام الشّعْر العباسيّ

في هذا المجال نتكلّم عن القيم الإنسانية، والاجتماعية في شعر أبي العتاهية، وأبي العلاء المعريّ، والمتنبيّ، وأبي تمام، والشّريف الرضّى.

أبو العتاهية

حاول أبو العتاهية بشعره الزهدي أن يذيع القيم في المجتمع العباسي المبتذل، إنّه كان يعتقد أنّ جذور حبّ الدنيا مصدر الفسق، والعصيان، والابتذال فبدأ يصغّر من شأن الدني، ويبين حقارتها، وسرعة زوالها، وانقضاء نعيمها، وأنّها دار غرور، وفتنة الغافلين، والمراد من ذلك أن يزهّد الناس بإخراج حبّها من قلوبهم حتّى لا تشغلهم عمّا خلقوا له، يقول الله تعالى: ﴿يا أيّها النّاس إنّ وعد الله حقّ فلا تغرّنكم الحياة الدّنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور﴾ (الروم: ٦٠) ويقول أيضاً: ﴿وما هذه الحياة الدّنيا إلا لهو ولعب وإنّ الدّار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ (العنكبوت: ٦٤) ويقول أبو العتاهية:

لعمرك، ما الدّنيا بدار بقاء	كفّاك بدار الموتِ دار فناء
فلا تعشق الدنيا أختي، فإنما	يرى عاشق الدنيا بجهدِ بلاء
حلاوتها ممزوجة بمرارة	وراحتها ممزوجة بعناء
فلا تمسّ يوماً في ثياب مخيلة	فإنّك من طينٍ خلقت وماء

(أحد العلماء اليسوعيين، ١٩٨٨م: ٨)

وإذا تورّقتنا ديوان أبي العتاهية نرى أنّه ما حرص في شعره على قيمة إنسانيّة إلا بعد أن ذمّ الدّنيا، وزخرفها ولذائذها، والحرص إليها، أو على الأقلّ ذمّها في أثنائها، ثمّ دعا



النَّاسَ إِلَى الْقِيَمِ، وَلَيْسَ مِنَ الْمِبَالِغَةِ إِذَا قِيلَ إِنَّهُ عَمِلَ كَعَالِمِ نَفْسَانِيَّ حَازِقٍ يَرِيدُ أَنْ يَشْفِيَ
مَدْمَنَا، فَكَشَفَ الدَّاءَ ثُمَّ تَكَلَّمَ عَنْ مَعَايِبِهِ، وَمَضْرَاتِهِ، ثُمَّ دَعَا الْمَدْمَنَ إِلَى مَا يَفِيدُهُ حَتَّى
يَتْرَكَ مَا أَدْمَنَهُ؛ وَمَنْ أَهَمَّ الْقِيَمِ الَّتِي شَوَّقَ النَّاسَ إِلَيْهَا هِيَ رِعَايَةُ حَقِّ الْجَارِ، وَحَرَمَةُ الدَّمِّ،
وَخَفْضُ الْجَنَاحِ لِلْأَخِ:

أَسْلَكَ بُنْيَ مَنَاهِجِ السَّادَاتِ	وَتَخَلَّقَنَ بِأَشْرَفِ الْعَادَاتِ
لَا تَلْهَيْتِكَ عَنْ مَعَادِكِ لَذَّةَ تَفْنِي	وَتَوْرَثَ دَائِمَ الْحَسْرَاتِ
وَإِذَا اتَّسَعْتَ بِرِزْقِ رَبِّكَ فَاجْعَلِنِ	مِنَهُ الْأَجَلَ لِأُوجِهِ الصَّدَقَاتِ
وَارِعَ الْجَوَارِ لِأَهْلِهِ مَتَبَرِّعَا	بِقِضَاءِ مَا طَلَبُوا مِنَ الْحَاجَاتِ
وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ إِنْ رَزَقْتَ تَسَلُّطَا	وَارْغَبْ بِنَفْسِكَ عَنِ اللَّذَاتِ

(عفيفي، ١٩٧٠م: ١١٣)

وَرَدَّ عَنْهُ فِي تَحْرِيرِ النَّفْسِ عَنِ نِيرِ الْمَالِ، وَالِدَّعْوَةَ إِلَى الْكَرَمِ:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَعْتَقِ مِنَ الْمَالِ رَقَّةً	تَمْلِكُهُ الْمَالُ الَّذِي هُوَ مَالِكُهُ
أَلَا إِنَّ مَالِي الَّذِي أَنَا مَنْفَقٌ	وَلَيْسَ لِي الْمَالُ الَّذِي أَنَا تَارِكُهُ
إِذَا كُنْتُ ذَا مَالٍ فَبَادِرْ بِهِ الَّذِي	يَحِقُّ وَإِلَّا اسْتَهْلِكْتَهُ هُوَالِكُهُ

(أحد العلماء اليسوعيين، ١٩٨٨م: ١٩١)

أبوتمام

رَأَى أَبُو تَمَامٍ أَنَّ الْمَجْتَمَعَ يَكَادُ يَخْلُو مِنَ الْقِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَأَحَاطَتْ الْكُؤَارِثُ الْأَخْلَاقِيَّةُ
بِالنَّاسِ، لِذَلِكَ اسْتَعْمَلَ شِعْرَهُ إِتْقَانًا لِمَجْتَمَعِهِ عَنِ الْمَسَاوِي، وَلَكِي يُؤَثِّرَ شِعْرَهُ، اسْتِفَادَ مِنْ
لِسَانِ عَصْرِهِ، وَمِمَّا كَانَ يَشْتَاقُ النَّاسَ إِلَيْهِ أَى الْحِكْمَةَ، وَقَدْ حَرَصَ الْعَرَبُ عَلَى الْحِكْمَةِ
أَنْذَاكَ، لِأَنَّهَا تَمَثَّلُ مَنْطِقَ الْحَيَاةِ الْبَسِيطَةِ، وَفَلَسْفَتِهَا الْفَطْرِيَّةَ، بِهَا يَحْلُلُونَ الْوَاقِعَ، وَيَفْسِّرُونَ
طَرِيقَةَ الْفَهْمِ وَالِاسْتِيعَابِ، وَيَعْلَلُونَ مَنَهْجَ التَّفْكِيرِ، وَيَصَوِّرُونَ الْحَيَاةَ فِي شَتَّى مَنَاحِيهَا،
وَقِيمِهَا، وَالْحِكْمَةُ تَصْدُرُ عَنِ خُبْرَةِ طَوِيلَةٍ، وَتَجْرِبَةٍ عَمِيقَةٍ، إِنْ الشَّاعِرُ كَانَ يَتَكَيَّ عَلَى
الْقِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ خِلَالِ ثِقَافَتِهِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْوَاسِعَةِ، وَحَفِظَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ، فَهُوَ بِهَذَا التَّأَثُّرِ



يدغدغ عواطف المتلقين، ويمتعمهم بحكم تنساب انسياباً بشكل جميل رائع، ونجده يلحّ إلحاحاً كبيراً على الموروث القيمي، وينهل منه لأنه هو الذي يبيل الصدى، ويغذّي الروح، وانظر جمال التعبير في قوله حين يتحدث عن قيمة الصبر، ليخلص إلى أنّ الطاعة والقبول بما قدر الله يوليان الأجر:

فَصَبْرًا فِي الصَّبْرِ الْجَلَالَةِ وَالتَّقَى وَلَا إِثْمَ إِنْ خُبِرْتَ أَنَّكَ جَازِعٌ
فَقَدْ يَا جُرُّ اللَّهِ الْفَتَى وَهُوَ كَارِهِ وَمَا الْأَجْرُ إِلَّا أَجْرُهُ وَهُوَ طَائِعٌ

(حاوي، ١٩٧٣م: ٦٧٥)

ويؤكد في حكمه أن تحقيق المعالي، والقيم، والوصول إليها لا يكون عن طريق القول الذي لا طائل منه، وإنما يكون ذلك التحقيق بالعمل الفعلي فعلى الإنسان أن يلزم العلم بالعمل، يقول:

إِذَا الْمَرْءُ أَبَى بَيْنَ رَأْيَيْهِ نُلْمَةً تُسَدُّ بِنَعْنِيفٍ فَلَيْسَ بِحَازِمٍ

(المصدر نفسه: ٥٣٣)

وأدرك أبو تمام أنّ علة شيوع المساوىء، هي قلة أعمال العقل في الأمور الدنيوية، والدنيوية فالح في كثير من حكمه على أعمال العقل، الذي يحدّد الأشياء، ويستنتج منها ما قبله العقل، ويصنّفه، ويحكمه في شعره، فيخرجه كما خطّط له، ذلك أنّه يدرك الأشياء بعقله، مع عدم إغفال ما يعانى منه في نفسه، فهو حكيم في التوفيق بينهما، وإقامة العلاقة القويّة بينهما، انظر قوله:

فَإِنَّ الْفَتَى فِي كُلِّ ضَرْبٍ مُنَاسِبٌ مَنَاسِبَ رُوحَانِيَّةٍ مَنْ يُشَاكِلُ
وَلَمْ تَنْظِمِ الْعَقْدَ الْكَعَابُ لِزِينَةٍ كَمَا تَنْظِمُ الشَّمْلَ الشَّتِيَّتِ الشَّمَائِلُ

(المصدر نفسه: ٤٧٠)

فالبيت الأوّل يمثل حكومة افتراضية، تدور حول العلائق الروحية، التي تؤلّف بين ذوى النسب الواحد، والآخر يبرهن الأوّل ويدعمه، ذلك أنّ القيم المتماثلة تجمع، وتؤلّف بين أصحابها، كما تجمع الحسناء حبات العقد، وتؤلّف بينها.

وفيما يلي ذكرت بعض أشعاره التي أنشدها في الدعوة إلى القيم بلسان الحكمة:

أنشد في الرّغبة عن الدّنيا:

عفاء على الدّنيا طويل فأثّها
نفرّق من حيث ابتدّت تتجمّع

(التبريزي، ٢٠٠٥م، ج ٢: ٢٢٣)

وقال في الحياء والعفة:

فلا والله ما في العيش خير
ولا الدّنيا إذا ذهب الحياء
إذا لم تخش عاقبة الليالي
ولم تستحي فافعل ماتشاء

(المصدر نفسه: ٣١١)

وله في الدّعوة إلى الوفاء، وعدم الخيانة:

رأيت الحرّ يجتنب المخازي
ويحميه عن الغدر الوفاء

(المصدر نفسه: ٣١١)

أبو العلاء المعري

عندما نظم أبو العلاء المعري شعره، وكتب نثره في رسائله المختلفة، إضافة إلى النّقد الخلقّي والاجتماعي، صور القيم الإنسانيّة العليا؛ فتحدّث عن الإيمان، والتّقوى، والعقل، والمجتمع، والطّبيعة البشريّة.

كان أبو العلاء يكره أشدّ الإكراه النّفاق، والزّيف؛ وكان يرى أنّ من يتّصف بهذه الصّفات هو ضعيف جبان، يستتر عجزه عن الجهر بالحقيقة، والجرأة عليها بالنّفاق، وإنّ أحوجه ذلك إلى القسم الكذب:

أمسى النّفاقُ دروعاً يُستجنُّ بها
من الأذى، ويُقوى سردها الحلفُ

(المعري، ١٩٩٩م، ج ٢: ١٠٤)

إنّ معظم النّاس في العصر العباسي كانوا يحسبون التّدئين مجرد عبادات جسديّة، وحركات بدنيّة، إذا أداها المرء فقد التزم بطاعة الله، وحظى برضوانه، ولكن أبو العلاء يرى أنّ الغرض من هذه العبادات، ليس إتعاّب النفس، والجسد من شدّة الركوع، والسجود بل إنّما هو السّموّ بالروح، والارتقاء بالنّفس، والإقبال على القيم:



ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة، ولا صوف على جسد
وإنما هو ترك الشرّ مطرَحاً ونفضك الصدر من غلٍّ، ومن حسد

(المصدر نفسه، ج ١: ٢٥٨)

وإنه لا يرى فاصلا بين القيم والعقل، فهما في يقينه، رفيقان متلازمان؛ فالقيم عقل،
والعقل قيم، والمتدين الحقيقي هو الذي يتمتع بالقيم، وبالعقل السليم، لهذا يقول:

هفت الحنيفة، والتصارى ما اهتدتُ ويهودُ حارت، والمجوسُ مضلّله
إثنان أهل الأرض: ذو عقل بلا دين، وآخرُ دينٍ لاعقل له

(المصدر نفسه، ج ٢: ٢٠٦)

ومن علائم سخافة العقل عند الناس حبهم الشديد للدنيا، فإنه يرمى في أدبه إلى
تنبيه الناس للتخفيف من حب الدنيا وتعلقهم بها:

نحن البرية أمسى كلنا دنفاً يحبُّ دنياه، حباً فوق ما يجبُ

(المصدر نفسه، ج ١: ٨٠)

ثم يُبعد الناس عن المساوىء، وفي رأسها عادة شرب الخمرة التي كان يعتبرها سبب
جميع المساوىء، والشرور:

البابلية باب كلِّ بليّةٍ فتوقين هجومَ ذاك الباب

(المصدر نفسه: ١٣١)

و يحضُّ على المسارعة إلى القيم، والخيرات، ولاسيما الصداقة فيبين ما لها من
إيجابيات، وطالب بحفظ مودة الأصدقاء:

فاحفظ أخاك وإن تبين أنه بالي الوداد، ضعيفه مختله

(المصدر نفسه، ج ٢: ١٨٨)

كان أبو العلاء شديد الغيرة على النساء، فأدّته تلك إلى الإفراط، ولكنه مع هذا كان
يحبّ العفيفات، ويمتدح التي تحافظ على عفافها، وشرفها:

وخيرُ النساءِ الحامياتُ نفوسها من العار قبل الخيل تحمي ذمارها

(المصدر نفسه، ج ١: ٣٣٤)



واعتبر المرأة العفيفة أعلى رفعة من الشمس، والنجوم:

إذا ما غضوبٌ غاضبتُ كلَّ ربيبةٍ وكانت لميسُ لا تقرُّ على اللمس
فقد حازتا فضل الحياة وعُدتا مكانَ الثريا في المكارم، والشمس

(المصدر نفسه، ج ٢: ٢٧)

لم تشمل آراء أبي العلاء القيمية الإنسان فقط، بل شملت الحيوانات أيضا، فقد طلب من الناس الرفق بالحيوان، ودعاهم إلى عدم ذبح الحيوانات كقوت لهم.

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالمًا ولا تبغ قوتًا من غريض الذبائح
ولا تفجعن الطير وهي غوافل بما وضعت، فالظلم شرّ القبائح

(المصدر نفسه، ج ١: ٢٠٩)

وقال في الرفق بالحيوان في موضع آخر:

إنّ البهائم مثل الإنس عاقلة وإنّما نحن بهم ذات أرباق

(المصدر نفسه، ج ٢: ١٤١)

المتنبي

المتنبي كان يعيش في عصر الفتن، والاضطرابات، فكان يحتاج إلى حام قوى شجاع ذى خصال حميدة، يقضى حاجاته، ويحقق آماله، وطموحاته، وأفضل شخص يستطيع الإنسان أن ينتخبه ل قضاء هذه الآمال، والطموحات في العصر العباسي هو محارب فاتك شجاع يفتح العقد، ويسهل المصاعب، فضلا عن هذا إنه أراد أن يؤدي واجبه أمام مجتمعه، ويدافع عن القيم أمام سيل المساوي الهاجمة إليه، لذا نرى أنه في شعره ضرب عصفورين بحجر واحد، فأولا، مدح الحكام انتفاعا بدراهمهم، وثانيا، إنه بانتساب القيم إليهم، ولو أنهم ما كانوا مزينين بها حقيقة، أشاع القيم في المجتمع، وإليك بعض القيم المدعوة إليها في ضمن مدائحه:

نحن إذا نظرنا ديوانه نظرة عابرة لاحظنا كثيرا ما تكلم المتنبي في الدعوة إلى كسب

القيم، والمعالي، والعزة، ولو كانت في وسط النار:



فاطلب العزّ فى لظى وذر الذلّ ولو كان فى جنان الخلود

(البرقوتى، ٢٠٠٢م، ج ١: ٣٥١)

وحجّته على ذلك أنّ من اكتسب المعالى، والعزّ، والشرف بالجهد، والمشقّة لا يفقدها بالسهولة، فكسبها بالمشقّة داع للفخر، لا بالوراثة، وهكذا يكون الإنسان شرفا للآخرين:

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى وبنفسى فخرت لا بجدودى

(المصدر نفسه: ٣٥١)

وإنّ المشقّة هى التى تعرقل السبيل لكى لا يصل ضعيف النفس، والدليل إلى ذروة المعالى، ولولا الجهد، والمشقّة لساد الناس حتّى البليد:

لولا المشقّة ساد الناس كلّهم الجود يفقر والإقدام قتال

(المصدر نفسه، ج ٢: ٩٤٢)

وحجر الأساس، لاكتساب المعالى، والقيم هو خلوّ القلوب من حبّ الدّنيا، والسّعى إلى اكتسابها، ولو كنّا وحيدين:

لا ألحظ الدّنيا بعينى وامق ولا أبالى قلّة المرافق

(المصدر نفسه: ٦٩٤)

ويعتقد أبو الطيب أنّ ظاهر الإنسان الجميل، والأنيق لا يفيد إذا كان باطنه بليدا، ولا قيمة لبياض اللباس، وإنّما المعولّ عليه بياض النّفس، ونقاؤها من العيوب:

إنّما الجلد ملبس وبيضاؤ النّفس خير من ابيضاؤ القباء

(المصدر نفسه، ج ١: ١١٤)

والممدوح هو من يكسب رضا الله، لا رضا اللّوام، والحساد:

فمن كان يرضى اللّوم والكفر ملكه فهذا الذى يرضى المكارم والرّبا

(المصدر نفسه: ١٤٤)

وكسب العلى يجب أن يحصل فى حدّاته السنّ، لأنّ العلم فى الصّغر كالنّقى فى الحجر، وهذا ما قاله فى رثاء أخت سيف الدّولة يعدّد خصالها الحسنه:

وهمّها في العلى والمجد ناشئة وهمّ أترابها في اللّهُو واللّعب

(المصدر نفسه: ١٦٤)

والإنسان العزيز، والكريم هو الذى يسعى إلى كسب القيم لا من يقبل الضيم:

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

(المصدر نفسه: ٣٥٠)

وحفظ العرض، واحترام النّفس عند العزيز، والكريم أفضل من حطام الدّنيا:

ولا أقيم على مال أدلّ به ولا الذّ بما عرضى به درن

(المصدر نفسه، ج ٢: ١٢٣٣)

وما أحقر من يحتقر نفسه، وما أشبه هذا الرّجل بالميت، لأنّه لا يتألّم بجراحة الذّلة،

والاحتقار، ويسهل عليه احتمال الهوان:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

(المصدر نفسه: ١١١٥)

لذلك فى مدح سيف الدّولة يقول إنّه يقبل الموت، ولا يقبل العار:

لله قلبك ما يخاف من الرّدى ويخاف أن يدنو إليك العار

(المصدر نفسه، ج ١: ٤٦٦)

والحرّ لا يريد الذّلة، والعار حتّى للأغيار، فكيف إذا كان من جيرانه فأشار بهذا البيت

إلى أنّ سيف الدّولة يحفظ الجار بحيث يعزّ جاره الذّليل على الأعزّة فلا يقدر أن

ينالوه الذّلة، والمتكبّر العاتى العظيم يصير ذليلا لديه إذا غضب:

يا من يعزّ على الأعزّة جاره ويدلّ من سطواته الجبار

(المصدر نفسه: ٤٦٩)

والحرّ يترفع عن هبة النّاقص، وينزه عن الأخذ منه حتّى لا يحتاج إلى أن يشكره

كما يقول المتنبى:

إذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص على هبة فالفضل فيمن له الشّكر

(المصدر نفسه: ٥٢٠)



الشريف الرضي

ما إن نسلم بالشريف الرضي حتى يعظمه وجودنا كله، لجمعه كتابا سماه بنهج البلاغة الذي لا يعد نهجا للبلاغة، والبيان فحسب، بل هو نهج متكامل للحياة الحرة الكريمة التي يتوق إليها كل إنسان حرّ شريف؛ الشريف الرضي فضلا عن هذه المحاولة العظيمة لتقديم القيم، استطاع أيضا بأدبه أن يرى الناس القيم، وطريق الحياة الحقيقي، فإنه نثر القيم في شعره الذي أنشد في هذه الأغراض: الفخر، والمدح، والغزل، والرثاء، والزهد. ما افتخر الشريف بنفسه، وبآبائه إلا لكونهم مزيّنين بالقيم، ومكارم الأخلاق فانظروا إلى أبياته هذه:

أنا ابن السابقين إلى المعالي	إذا الأمد البعيد ثنى البطاء
إذا ركبوا تضايقت الفيافي	وعطل بعض جمعهم فضاء
نماني من أباة الضيم نام	أفاض عليّ تلك الكبرياء
شأونا الناس أخلاقا لدانا	وإيماننا رطابا واعتلاء
ونحن الخائضون بكلّ هول	إذا ذبّ الجبان به الضراء
ونحن اللابسون لكلّ مجد	إذا شئنا أدراعا والارتداء
أقمنا بالتجارب كلّ أمر	أبي إلا اعوجاجا والتواء

(الشريف الرضي، لاتا، ج ١: ٨٧)

فالشريف يفخر فيها بنفسه، وينسبه لتمسكهم بالقيم، والفضائل هذه: السبق إلى المعالي، وكثرتهم في الجهاد، وإباء الضيم والكبرياء، والأخلاق الكريمة، والعلو، والشجاعة، والجدّ في طلب المجد، والجدّ في طلب الإصلاح، والإيمان العميق، وعلامة عمق إيمانهم، اقترانه بقيم أخرى كالفضل، والشجاعة، ولذلك فإنه يأبى لنفسه - وهو وارث أفضل الخلائق - أن يركن لملوك كالبهائم، فهو لا يعطيهم يده إعطاء الذليل، وقد سلّ مهنده من غمده:

أرى ملوكاً كالبهام غفلةً	في مثل طيش النعم الجوافل
أولى من الذود إذا جربتهم	برعى ذى الرياض والخمائل



إِنْ أَنَا أُعْطَيْتَهُمْ مِقَادَتِي فَلِمَ إِذَا أُطْلِقَ غَرْبِي صَاقِلِي
وَمِقُولِي كَالسَّيْفِ يَحْتَمِي بِهِ أَشْوَسُ أَبَاءَ عَلَى الْمَقَاوِلِ

(المصدر نفسه، ج ٢: ١٧٣ و ١٧٤)

أما مدائح الشريف، فمعظمها يتناول الأئمة المعصومين (ع) الذين فيهم وحدهم يطيب المدح، ويحلو التناء:

أُهْدَبُ فِي مَدْحِ الرَّجَالِ خَوَاطِرِي فَأُصَدِّقُ فِي حَسَنِ الْمَعَانِي وَأَكْذِبُ
وَمَا الْمَدْحُ إِلَّا فِي النَّبِيِّ وَآلِهِ يُرَامُ وَبَعْضُ الْقَوْلِ مَا يُتَجَنَّبُ
وَأَوْلَى بِمَدْحِي مَنْ أَعَزُّ بِفَخْرِهِ وَلَا يَشْكُرُ النَّعْمَاءَ إِلَّا الْمَهْدَبُ
أَرَى الشَّعْرَ فِيهِمْ بَاقِيًا وَكَأَنَّمَا تُحَلِّقُ بِالْأَشْعَارِ عُنُقَاءَ مُغْرَبُ
وَقَالُوا عَجِيبٌ عَجَبٌ مِثْلِي وَأَيْنَ عَلَى الْأَيَّامِ مِثْلَ أَبِي أَبُ
لِعَمْرٍكَ مَا أُعْجِبْتُ إِلَّا بِمَدْحِهِمْ بِنَفْسِهِ وَ يُحْسَبُ أَنِّي بِالْقَصَائِدِ مُعْجَبُ
أَعِدُّ لِفَخْرِي فِي الْمَقَامِ مُحَمَّدًا وَادْعُوا عَلِيًّا لِلْعَلِيِّ حِينَ أَرْكَبُ

(المصدر نفسه، ج ١: ١١٢)

والالتزام بالقيم عند الشريف الرضي، جلي في غرض الغزل، فهو غفيف في غزله، طاهر في تشبيبه، على كثرته، وعذوبته ورقته، والعفة عند الشريف صفة مستأصلة فيه لا يقتسرهما في شعره قسراً، ولا يفتعلها افتعالاً، لأنها طبع فيه لا تطبع:

خَلُونَا فَكَانَتْ عَفَّةٌ لَا تَعْفُ وَقَدَّرْتِ فِي الْحَيِّ عَنَّا الْمَوَاضِعُ
سَلُوا مَضْجَعِي عَنِّي وَعَنْهَا فَإِنَّا رَضِينَا بِمَا يَخْبِرُنَا عَنَّا الْمَضَاجِعُ

(المصدر نفسه، ج ٢: ٦٥٨)

فالعفاف زجره عن ارتكاب أية خطيئة، وهو إن أحب فتكفيه من حبيبه نظرة لا تشوبها سائبة، لأن عليه من نفسه رقيباً يصونه، ومن فوقه رباً يعلم خائنة الأعين، وما تخفى الصدور:

يَقُولُونَ مَشْغُوفُ الْفُؤَادِ مَرَّعٌ وَمَشْغُوفَةٌ تَدْعُو بِهِ فَتَجِيبُ
وَمَا عَلِمُوا أَنَّا عَلَى غَيْرِ رَيْبَةٍ بَقَاءَ اللَّيَالِي نَغْتَدِي وَنُؤُوبُ
عَفَافِي مِنْ دُونَ التَّقِيَّةِ زَاجِرٌ وَصَوْنِكِ مِنْ دُونَ الرَّقِيبِ رَقِيبُ



عشقتُ ومالي يعلم الله حاجةً سوى نظرى والعاشقون ضروبُ

(المصدر نفسه، ج ١: ١٧٥)

وارتبط غرض الرثاء في شعر الشريف ارتباطاً وثيقاً بقيمة إنسانية كالوفاء؛ فالشريف وفى لمبادئه، وفى لعقيدته، وفى لأسرته ونسبه، وفى لأصدقائه، وفى لكل من أسدى له خدمة، أو قدّم له معروفاً، وكان يمكن لهذا البحث أن يحمل عنوان: الوفاء في شعر الشريف الرضى دون أن يُخل ذلك في موضوعه، أو سياقه، أو نتائجها؛ وكما ذكرنا فقد كان الرثاء مصطبغاً بطابع الوفاء ومتسماً به، وديوانه ممتلئاً بهذا الغرض الشعري، لأنه كان وفياً لأحبتّه، وإخوانه في مماتهم، كما كان وفياً لهم في حياتهم، فالموت لا يحول دون التزامه بالوفاء لهم، والإعتراب بهم:

إنّ الوفاء كما اقترحتُ فلو يكنُ حياً إذا ما كنتُ بالمزدادِ

(المصدر نفسه، ج ١: ٢٧٤)

وقد عُرف الشريف برثائه للأعلام وفاءً، وعرفاناً فقد رثى كلاً من أساتذته كعثمان ابن جنى (٣٩٢ق) أحد أئمة الأدب، والنحو، والفقه:

وَمَنْ لِلْمَعَانِي فِي الْأَكِمَّةِ أَلْقَيْتُ إِلَى بَاقِرٍ غَيْبَ الْمَعَانِي وَفَاتِقِ
يُطَوِّحُ فِي أَثْنَائِهَا بِضَمِيرِهِ مَرِيرُ الْقَوَى وَلَا جُ تَلِكِ الْمَضَائِقِ
تَسْمُ أَعْلَى طُودِهَا غَيْرَ عَاثِرِ وَجَاوَزَ أَقْصَى دَحْضِهَا غَيْرَ زَالِقِ
طَوَى مِنْهُ بَطْنُ الْأَرْضِ مَا تَسْتَعِيدُهُ عَلَى الدَّهْرِ مَنْشُوراً بِطُونِ الْمَهَارِقِ

(المصدر نفسه، ج ٢: ٦٦-٦٥)

أما أعظم مراثياته التي يصدق إطلاق مبدأ الالتزام بالقيم الإنسانية عليها، فهي خمس قصائد رائعة نظمها في رثاء الإمام الحسين (ع) دفاعاً عن المظلوم، وعن أفدى بنفسه في سبيل الحرية، وهذه في نفسه قيمة إنسانية؛ وفضلاً عن هذا، الدفاع عن الإمام الحسين (ع) يعني الدفاع عن القيم الإنسانية كلها، ذلك لأنّ الامام الحسين (ع) أحيأ بشهادته القيم الإنسانية إلى الأبد، أولها في ديوانه تلك التي مطلعها:

كربلا، لا زلتِ كرباً وبلا ما لقي عندك آل المصطفى



كَمْ عَلَى تَرْبِكَ لَمَّا صُرِّعُوا مِنْ دَمٍ سَالَ وَمِنْ دَمْعٍ جَرَى

(المصدر نفسه، ج: ١، ٤٤)

وديوان الشَّريف الرُّضِيِّ لا يكاد يضم بين دفتيه من غرض الزهد الذى تظهر فيه ملامح الالتزام بالقيم بجلاء، ووضوح إلا مقطوعات قليلة جداً، وإنه وفى شعره الزهدى كسائر الشعراء صغر الدنيا، وصرف همته عنها لترغب إلى النَّجاة بالآخرة:

تركَ الدُّنْيَا لَطَالِبِهَا	ورضى بالدُّونِ مقتصداً
نافراً منها فليس يرى	بالأمانى أنساً أبداً
بعد أن نال العلاء وما	زال يَنمى جدهُ صُعدا
نفضَ الأطماعَ عن يدهِ	واستخارَ الواحدَ الأحدا
رأى أن لا نِجاةَ له	فمضى يبغي النَّجاةَ غدا

(المصدر نفسه: ٣٨٦)

وللشَّريف فى الزَّهد معانٍ إنسانيَّةٍ أخرى غير هذا، منها العزَّة، والتَّوَكُّل؛ فإنَّه ينكر على أولئك الذين يوكِّلون حوائجهم إلى الخلق، يقصدونهم فيها، ويتوسَّلون إليهم فى قضائها، منصرفين إليهم عن الله الرَّؤوف الرَّحيم الذى إليه ترجع الأمور، وما على المرء إلا أن يفوض أمره إليه، وهو العليم الخبير، لينام قري العين، هانئ البال:

قدقلتُ للرَّجلِ المُقسِّمِ أمره	فوضَّ إليه تنمَّ قريِّ العينِ
رُدَّ الأمورَ إلى العليمِ بغيِّها	وتلقَّ ما يُعطيكهُ بيدينِ
اللهُ أنظرُ لى من النَّفسِ التى	تغوى وأرافُ بى من الأبوينِ

(المصدر نفسه، ج: ٢، ٤٩١)

القيم الانسانية، والاجتماعية فى آثار أعلام النثر العباسى

الجاحظ

ينفى الجاحظ أن تكون القيم شخصيَّة المنشأ أو جمعيَّة المنشأ، لأنَّ هذا الاعتبار لا يقيم فرقاَ بينَ الإنسان والحيوان، ويقود إلى احتقار الأخلاق بدايةً، ويوصل فى منتهاه



إلى ارتكاب الفواحش، والآثام، والحرام من دون الخوف من عقاب أيّ عقاب، بل يقول إن الله عزّ وجلّ، منشأ القيم: «إِنَّا لَمَّا رَأَيْنَا أَطْبَاعَ النَّاسِ، وَشَهَوْتَهُمْ مِنْ شَأْنِهَا تَنَقَّلَ إِلَى هَلَكْتِهِمْ وَفَسَادِ دِينِهِمْ وَذَهَابِ دُنْيَاهُمْ، وَإِنْ كَانَتْ الْعَامَّةُ أَسْرَعَ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْخَاصَّةِ، فَلَا تَنْفَكُ أَطْبَاعُهُمْ مِنْ حَمَلِهِمْ عَلَى مَا يَرِدُ بِهِمْ مَا لَمْ يَرِدُوا بِالْقَمْعِ الشَّدِيدِ فِي الْعَاجِلِ وَمِنْ الْقِصَاصِ مِنَ الْعَادِلِ، ثُمَّ التَّنْكِيلِ فِي الْعُقُوبَةِ عَلَى شَرِّ الْخِيَانَةِ، وَإِسْقَاطِ الْقَدْرِ، وَإِزَالَةِ الْعَدْلِ مَعَ الْأَسْمَاءِ الْقَبِيحَةِ، وَالْأَلْقَابِ الْهَجِينَةِ، ثُمَّ بِالْإِخَافَةِ الشَّدِيدَةِ، وَالْحَبْسِ الطَّوِيلِ، وَالتَّغْرِيْبِ عَنِ الْوَطَنِ، ثُمَّ الْوَعْدِ بِنَارِ الْأَبَدِ مَعَ فَوَاتِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا وَضَعَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْخِصَالَ لِتَكُونَ لِقُوَّةِ الْعَقْلِ مَادَّةً، وَلِتَعْدِيلِ الْأَطْبَاعِ مَعُونَةً، لِأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا فَضَلَتْ قُوَى طِبَاعِهِ، وَشَهَوَاتِهِ عَلَى عَقْلِهِ، وَرَأْيِهِ أَلْفَى بِالصِّرَافِ بِالرُّشْدِ غَيْرِ قَادِرٍ عَلَيْهِ، فَإِذَا احْتَوَشَتْهُ الْمَخَافُوفُ كَانَتْ مَوَادِّ لَزَوَاجِرِ عَقْلِهِ، وَأَوَامِرِ رَأْيِهِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي حَوَادِثِ الْأَطْبَاعِ، وَدَوَاعِي الشَّهَوَاتِ، وَحُبِّ الْعَاجِلِ فَضَلَ عَلَى زَوَاجِرِ الْعَقْلِ، وَأَوَامِرِ الْغَيْ، كَانَ الْعَبْدُ مَمْعَنًا فِي الْغَيْ، وَالتَّسَاءِ، وَالْمَكَاتِرَةِ، وَالْعَجَبِ، وَالْخِيَلَاءِ، وَأَنْوَاعِ هَذِهِ إِذَا قَوِيَتْ دَوَاعِيهَا لِأَهْلِهَا وَاشْتَدَّتْ جَوَازِبُهَا لِصَاحِبِهَا، ثُمَّ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ فَوْقَهُ نَاقِمًا عَلَيْهِ، وَأَنَّ لَهُ مَنْتَقِمًا لِنَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ، أَوْ مَقْتَضِيًا مِنْهُ لغيره، كَانَ مِيلَهُ وَذَهَابَهُ مَعَ جَوَازِبِ الطَّبِيعَةِ، وَدَوَاعِي الشَّهْوَةِ طَبَعًا لَا يَمْتَنِعُ مَعَهُ، وَوَاجِبًا لَا يَسْتَطِيعُ غَيْرَهُ.» (الجاحظ، ١٩٩٥م، ج ٧: ١٣)

يرى الجاحظ الأخلاق، وحرية الإنسان تتجلى في استطاعته اختيار الشر أو الخير لذلك يقول إن الشر ضروري الوجود، وكأنه يريد القول: إن وجود أحد النقيضين وحده في حياة الإنسان يعني انعدام حرّيته، وانعدام حرّية الإنسان انعدام لإنسانيته، وفي ذلك يقول: «متى ذهب التّخيير ذهب التّمييز، ولم يكن للعالم تثبّت، وتوقف، وتعلّم، ولم يكن علم، ولا يعرف التّبين، ولا دفع مضرّة، ولا اجتلاب منفعة، ولا صبر على مكروه، ولا شكر على محبوب، ولا تفاضل في بيان، ولا تنافس في درجة، وبطلت فرحة الظفر، وعز الغلبة، ولم يكن على ظهرها محقّ يجد عزّ الحقّ، ومبطل يجد ذلّة الباطل، وموقن يجد برد اليقين، وشاكّ يجد نقص الحيرة وكرب الوجود، ولم تكن للنّفوس آمالٌ ولم تتشعبها الأطماع، ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس، ومن جهل اليأس جهل الأمن.»



(المصدر نفسه: ٢٠٤ و ٢٠٥)

إنَّ لأبي عثمان نظريَّةً في الاعتدال أو التَّوسط اقتبسه من القرآن الكريم، والحديث النَّبويِّ الشَّريف يقول فيها: «الإفراط في الجود يوجب التَّبذير، والإفراط في التَّواضع يوجب المذلَّة، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصَّة، والإفراط في الموانسة يدعو إلى خلطاء السُّوء، والإفراط في الانقباض يوحيش ذا النَّصيحة، وآفة الأمانة ائتمان الخانة، وآفة الصِّديق تصديق الكذبة، والإفراط في الحذر يدعو إلى الآ يوثق أحد.» (الجاحظ، ١٩٩٠م، ج ١: ١١١)

ومن القيم التي نستحسنها، ونشاهدها في آثار الجاحظ هي الصداقة، مثلاً إنَّه على الرَّغم من رفضه لضروب سلوك البخلاء، والمبذرين، ومناقشته لحججهم، وأفكارهم الخاطئة، وردّها عليهم ظلَّ أميناً في تصوير الوقائع، واقعيّاً في تعامله مع أخلاقهم، موضوعياً في أحكامه، ولذلك لم يمنعه اعتراضه عليهم من الإعجاب بذكائهم، وفطنتهم، وظرافتهم، وطرافتهم، كما لم يُقدِّه ذلك إلى التَّبرُّم بهم أو التُّفور منهم أو السَّخَط عليهم، وهذا يبدو بالتَّلميح، والتَّصريح في كثيرٍ من مواضع كتابه في البخلاء، وكتبه، ورسائله الأخرى.

شَوَّق الجاحظ النَّاس إلى العلم فإنه جعل العلم ضرباً من ضروب اللذَّة، والحقُّ أنَّه، في هذه الفكرة، يردُّ في الأصل على فريقٍ من النَّاس ذهب إلى أنَّ السَّعادة تتمثَّل في اللذات الحسيَّة وحسب، على نحو مشابه لما ذَهَبَ إليه التَّفغيُّون والذَّرائعيُّون، وهذا نصُّه، يقول: «ومن النَّاس من يقول: إنَّ العيش كلُّه في كثرة المال، وصحَّة البدن، وخمول الذِّكر، وقال من يخالفه: لا يخلو أصحاب البَدَنِ الصَّحيح، والمال الكثير، من أن يكون بالأمر عالماً، أو يكون بها جاهلاً فإن كان بها عالماً فعلمه بها لا يتركه حتَّى يكون له من القول والعمل على حسب علمه، لأنَّ المعرفة لا تكون كعدمها، لأنَّها لو كانت موجودةً غير عاملةٍ لكانت المعرفة كعدمها، وفي القول والعمل ما أوجب التَّباهة، وأدنى حالاته أن تخرجه من حدِّ الخمول، ومتى أخرجته من حدِّ الخمول فقد صار معرَّضاً لمن يقدر على سلبه؛ وكما أنَّ المعرفة لا بُدُّ لها من عملٍ، ولا بدَّ للعمل من أن يكون قولاً أو فعلاً، والقول



لا يكون قولاً إلاً وهناك مقولٌ له، والفعل لا يكون فعلاً إلاً وهناك مفعولٌ له، وفي ذلك ما أخرج من الخمول وعُرف به الفاعل...» (الجاحظ، ١٩٩٥م، ج ٢: ٩٦ - ١٠٠)

بديع الزّمان الهمذاني

خلد الهمذاني في المقامات أوصافاً للقيم الإنسانية، وللرذائل الإنسانية فكان بحق واصفاً بارعاً لا تفوته كبيرة ولا صغيرة؛ والمقامات هذه تحفة أدبية رائعة بأسلوبها، ومضمونها الطريفة التي تبعث على الابتسام، والمرح، وتدعو إلى قيم إنسانية، واجتماعية، كالصدق، والشّهامة، ومكارم الأخلاق التي أراد بديع الزّمان إظهار قيمتها بوصف ما يناقضها، وقد وفق في ذلك أيما توفيق، فانظروا مثلاً إلى المقامة القرديّة، حيث نجد البديع ينقد من طرف خفيّ حلقات المشعوذين التي يجتمع حولها النّاس في الأسواق والشّوارع، ليضيعوا أوقاتهم عبثاً، فلم يراعوا منهم حتى شيوخهم أن يجتمعوا في هذه الحلقة؛ ليستمعوا إلى ما يقوله المشعوذون، والمحتالون الذين لا يريدون أن ينالوا الرّزق عن طريق ما، وإنما ضعف همّهم، فغدوا يلتمسونه بواسطة ما يحتالون.» (مرتاض، ١٩٨٨م: ٣٢١) ثمّ يميل إلى نقد حياة النّاس المزخرفة، واللاهية ثمّ العبث، والفسق، والفجور الموجود فيها.

ونرى أنّ بديع الزّمان في بعض مقامته الأخرى يُرشد النّاس مباشرة إلى الخيرات كمقامته الوعظية، وفيها يدعو النّاس إلى إعداد الرّزاد للمعاد، والانصراف عن الدّنيا إلى الآخرة فيقول: «وإنّ مع اليوم غداً، وإنّكم واردو هُوّة، فأعدّوا لها ما استطعتم من قُوّة، وإنّ بعد المعاش معاداً فأعدّوا له زادا.» (البقاعي، ١٩٩٠م: ٩٣) ثمّ في موضع آخر يقول: «يا قوم الحذر الحذر، والبدار البدار من الدّنيا، ومكايدها، وما نصبت لكم من مصايدها، وتجلّت لكم من زينتها، واستشرفت لكم من بهجتها.» (المصدر نفسه: ٩٦)

ولم يترك بديع الزّمان في رسائله واجبه الإنساني أمام المجتمع، فعمل كصحفي لتنوير أفكار النّاس، وإخبارهم عمّا يحدث في واقعهم الاجتماعي، وتدخّل في شؤون الدولة، يطلب من الأمير استبقاء كلّ صالح من الحكّام، والخدماء في الدّولة وإخراج كلّ



فاسد: «الشيخ الجليل أدام الله عزّه يعلم حالة هراة وأهلها في استقصاء النّقد وكثرة الرّدّ وشدة الاحتياط في المدح وجرأة الإقدام على الدّمّ وأنّ الجميل عندهم من وراء جدار والقبیح عندهم نار على منار، ووردت هراة فوجدت الألسن متّفقة على تقریظ أبي فلان، وتسألّه المقام بين أظهرهم وتجزع لخروجه من بلدهم ثمّ وجدته بعد غالياً في العبوديّة للشيخ الجليل مستظهاً بأيامه وسألني تقرير حاله وإقامة الشّهادة له فخرجت من عهدتها وللشيخ الجليل فيما أنفاه عبده وخادمه العين العالیّة.» (عزام، لاتا، المجلد الأول من السنة الثالثة)

النتيجة

نسنتج، أولاً: أنه لم يكن جميع الأدباء فاسقين ماجنين بل لانتعسف إذا قلنا إنّ أكثرهم كانوا ملتزمين بالقيم إلا أنّ المجتمع الفاسد أثر عليهم أحياناً؛ ثانياً: كلّ من هؤلاء الأدباء نهج طريقاً خاصاً به في أدبه ليسير وفق القيم حسب الظروف الموجودة فإنهم نهجوا النهج الزهدي، والحكمي، والعقلي، والحماسي، والديني، والفلسفي، والصّحفي؛ ثالثاً: لم يكن العصر العباسي، وأدبه بمعزل عن القيم الإنسانية؛ رابعاً: يرجع سبب انتشار المجون، والفسق في هذا العصر إلى الحكام، والخلفاء الخلعاء، وإلى العلماء المتظاهرين بالدين، وعدم اعتماد الناس على العقل للفهم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.
أحد العلماء اليسوعيين. ١٨٨٨م. الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية. بيروت: المطبعة الكاثوليكية.
البرقوقي، عبدالرحمن. ٢٠٠٢م. شرح ديوان المتنبي. الطبعة الأولى. بيروت: دارالفكر.
البقاعي، يوسف. ١٩٩٠م. شرح مقامات بدیع الزمان الهمذاني. الطبعة الأولى. بيروت: دار الكتاب العالمي.

التبريزي، الخطيب. ٢٠٠٥م. شرح ديوان أبي تمام. ضبطه راجي الأسمر. بيروت: دارالكتاب العربي.
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. ١٩٩٥م. الحيوان. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت:



دارالجيل.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. ١٩٩٠م. الرسائل السياسية (المعاش والمعاد). شرحها علي أبو ملحم. الطبعة الأولى. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

الجندي، علي ومحمد صالح السمك ومحمد أبو الفضل إبراهيم. ١٩٦٠م. أطوار الثقافة والفكر في ظلال العروبة والإسلام. الطبعة الأولى. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

حاوي، إيليا. ١٩٧٣م. شرح ديوان أبي تمام. الطبعة الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية.

الخفاجي، محمد عبد المنعم. ١٩٩٠م. الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي. الطبعة الأولى. بيروت: دارالجيل. الشريف الرضي، أبو الحسن محمد ابن أبي طاهر. لاتا. الديوان. بيروت:

دار صادر.

عزام، عبد الوهاب. لاتا. سلسلة مقالات. مجلة الرسالة. المجلد الأول من السنة الثالثة.

عفيفي، محمد الصادق. ١٩٧٠م. ثورة الخمریات - ثورة الزهديات. بيروت: دار الفكر.

مرتاض، عبد الملك. ١٩٨٨م. فن المقامات في الأدب العربي. الطبعة الثانية. تونس: الدار التونسية للنشر.

المعري، أبو العلاء. ١٩٩٩م. ديوان اللزوميات. الطبعة الأولى. بيروت: مؤسسة الأعلمی للمطبوعات.

معلوف، لويس. ١٩٩٢م. المنجد في اللغة. الطبعة الثالثة والثلاثون. بيروت: دارالمشرق.

